التكامل الاسلوبي
بين سورتي المزمّل والمدثّر

أ.م .د .صباح عيدان حمود
كلية التربية - جامعة ميسان

مقدمة وتمهيد:

بعد قراءة متأنية في سورتي المزمل والمدثر، والاطلاع على اراء المفسرين واقوالهم في بيان اسباب النزول ، ودلالة المفردات ، والتعريف بماهية المعنى ، وما ترتب على ذلك في تدوين أحداث تخص شخص المخاطب في هاتين السورتين، اتضح ان هناك اختلافاً كبيراً جداً في دلالة مفردتي (المزمّل والمدثر) يصل الى حد التقاطع أحياناً ، كما أن أكثر المفسرين يأخذ السابق منهم عن اللاحق من دون التحليل ، أو النقد لما يقوله السابقون ، فلم ينتهِ القارئ الى دلالة معينة أو قارة ، يمكن أن تكون معتمدة مفتاحاً لما بعدها، ولاسيما أن السورتين تخصان شخص النبي المرسل (ص) وفيهما من الابعاد المهمة التي تخص الرسالة والوحي. لذا حاول الباحث في هذه الدراسة المقارنة بين السورتين الإفادة من مقومات النص، وجزئيات التركيب، والمقاربة بين الآراء، والمقارنة بينها للتوصل الى أقرب النتائج التي تتناسب مع عبقرية المبدع، وعلاقته بالمتلقي الاول، وبيان مقامه في بناء شخصيته العظيمة التي ينبغي لها ان تتحمل عبأ كبيراً، وثقلا كثقل الرسالة والكتاب الذي اختير أن يكون معجزها، وان تكون شخصيته متوائمة مع ما يُوكل اليها من تبليغ الرسالة الى الأجيال، انسجاماً مع خلودها وسرمديتها المحتومة.

تحاول هذه القراءة أن تضع يدها

على العلاقات الاسلوبية بين السورتين ، وبيان مساحة التكامل الاسلوبي بينهما، في ضوء السياق والبناء الداخلي، والآخر الذي احاط بهما من ظروف مختلفة ومتراكمة في قراءة النص ، فيما يتعلق بالسياق الداخلي، وكذلك السياق الخارجي فيما يتعلق بشخص المتلقين ، وما يترتب على هذه المعاني في توجيه الصفات التي تخص النبي (ص) ومكانته، والظروف المحيطة به ، واسباب النزول، وما تفتضيه السيرة النبوية وتدوينها ، وملابسات رسم الشخصية الاول في الوجود البشري .

التكامل الاسلوبي

لعل مصطلح التكامل ونسبته الى الاسلوبية يحتاج الى شيء من التوضيح ؛ لأنه لم يستعمل سابقا حسب علم الباحث بهذا المعنى المقصود هنا ، ونستطيع أن نجعله تحت صنف الاسلوبية المقارنة ؛ ولكن بأطر جديدة ، وهو عمل يبيّن قوة الاتحاد الاسلوبي بين السورتين لأسباب موضوعية تخصهما، وذلك في وحدة الموضوع وتقارب الدلالة بين عنوانيهما، ووحدة الخطاب والمخاطِب والمخاطَب، وتطابق الصيغ الادائية في مجموعة الاوامر الموجهة للمخاطَب، وتوازي النتائج الدلالية التي يريدها المبدع في بناء القصد النهائي للنص. فالمنهج المتبع هنا هو معالجة منظومة النص بأكمله، فيمكن ان يقال: إننا نعمل على بيان الاسلوب في وحدة النص، فنسميه (اسلوبية النص) ، متجاوزين بذلك اسلوبية المفردة حين ينظر اليها في بنائها الصوتي أو الصرفي، وكذلك اسلوبية التركيب الجملي حين ينظر الى المفردة في بنائها النحوي (الوظيفي)، وانما تجتمع هذه الجزئيات الاسلوبية كلها للوصول الى اسلوبية نصية متكاملة، قادرة على سبك كل انواع الفرادة، وبيان علاقة التكامل في مستويات الاجزاء ، وما يرافقها من انزياحات في الدلالة وعدول في التركيب ، واشارات جمالية للوصول الى قصدية المبدع، والدلالة المفهومة عند المتلقي في هذا النوع من التكامل بين نصين تجمعهما روابط كثيرة في الابداع والتلقي .

والتكامل هنا هو نوع من انواع التقابل ، ولكن ليس التقابل الافقي الذي يبحث عن التضاد او التناقض أو التنافر؛ بل هو تقابل عمودي،

ونعني به المقابلة بين الاساليب المترابطة فيما بينها من علاقات التطابق، أو الترادف، او التماسك النصي ، كلها مصطلحات تصب في إظهار صورة نصية متكاملة لأسباب التوافق والتساوي بين السورتين ، ابتداء من التسمية ، ومرورا بالأوامر، وانتهاء بوحدة الخطاب (المبدع ، المتلقي، النص)، فالمبدع واحد ، والمتلقي المباشر في الدلالات الظاهرة في السورتين واحد، والنص الذي يمثل منظومة الاعجاز اللغوي واحد ايضا، متجاوزين بذلك تقابل التضاد في المستويات المقصودة. وسيكون ذلك في مجموعة مباحث تتعلق بالبناء والصوت والايحاء الدلالي التأويلي.

المبحث الاول: التكامل في الاسلوب والبناء

يُلاحظ في مستوى البناء النصي بين السورتين تكامل بين بعض التراكيب، و مشابهة كبيرة تصل الى حد التطابق أحياناً، وسنحاول في هذا المبحث التوقف عندها ، وعرض القراءات التي مرت عليها، ومحاولة الوصول الى بيان كمية هذا التناسب والتكامل في هذه المكونات النصية بين السورتين ، وذلك عن طريق ما يأتي:

١ – تركيب النداء (يا أيّها)

يعتمد هذا الاسلوب في عمليات النداء على ثلاثة منبهات علاماتية و صوتية : (يا) حرف النداء الرئيس، و (أي) المقصود في بيان مطلق المنادى، و(ها) المنبه الصوتي المتطاول الذي يسبب اثارة المنادى، ولهذا التركيب عند النحاة تفصيل وظيفي[١] ، فيتضح هذا الاتساق بين المستوى الصوتي والمستوى الوظيفي النحوي ، وهما بدورهما يخلقان مرتبة دلالية نستطيع أن نسمها بالمرتبة الروحية او النفسية، فإنه «روى عن علي عليه السلام أنه قال : يا :نداء النفس ، وأي: نداء القلب ، وها: نداء الروح»[٢]، وعلى هذا ترتقي هذه الصيغة في المنظور الاسلوبي الى مقامات المتلقي، وهو الرسول الاكرم (ص) ؛ لتتلاءم مع نفسه المقصودة في النداء ، ولاسيما اذا كان يمثل بؤرة النداء في هاتين السورتين، و المقصود من لدن مبدع الخطاب.

والملاحظ إن استعمال هذه الصيغة في النداء (يا أيها)؛ تخرج لأغراض

متعددة، ولكن نداء النبي خاصة لم يخرج عن هذه الصيغة في جميع خطاباته ، فلم ينادَ صلى الله عليه واله بأي اسلوب غيرها في ما يخص استعمال حرف النداء ، أما مع حذفه، فقد وردت في النص القرآني نداءات أخرى مثل : (طه ، و يس) على قول من يرى أن هذه الالفاظ من اسماء الرسول (ص)[٣] ، والنداء بصيغة (يا أيها)؛ يأتي دائماً مقروناً مع أحدى صفات محمد (ص) ، وأشهر الصفات التي نودي بها هما صفتا: النبوة (يا أيها النبي) ، وجاءت (١٣) مرة ، وصفة الرسالة : (يا أيها الرسول) وجاءت مرتين اثنتين ، ثم نداؤه بهاتين الصفتين في سورتين وضعتا – حسب ثقافة الجمع للقران وترتيبه – متتاليتين ، وهما قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)[٤] ، وقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)[٥]، وقد حاول المفسرون ان يضعوا لهذا الاسلوب في النداء الموجه الى النبي (ص) دلالة خاصة، تتفق ومقامه الذي يرتقي الى المقام المراد له، كونه حاملاً للرسالة والتبليغ، ولعل أشهر ما خرجوا به من توجيهات لهذا النداء التي يمكن التوقف عندها قولهم: « فإذا نودي المنادى بوصف هيئته من لبسةٍ أو جِلسة أو ضجعة ، كان المقصود في الغالب التلطف به، والتحبب إليه ولهيئته»[٦]. وفي الحقيقة أن هذا التوجيه في فهم المعنى ، ناتج عن مشكلة في توجيه دلالة المفردتين اللتين أفرزتهما الدلالات اللغوية، التي تخرج الى معانٍ من العتب واللوم الموجه الى مقام النبي (ص) ، والتقصير في مهمة تبليغ الرسالة السماوية، والتخلف في عمليتي التبليغ والإنذار. إذ ذهب صاحب المفردات الى هذا المعنى بوضوح، فيقول: «(يا أيها المزمل) أي المتزمل في ثوبه، وذلك على سبيل الاستعارة، كناية عن المقصر، والمتهاون بالأمر وتعريضا به «[٧] ، ونسب الراغب في كتابه مفردات الفاظ القران هذا المعنى الى المعتزلة[٨] ، متناسياً إن هذه المعاني تولدت من النصوص الموازية من الروايات التي سنعرض لها لاحقاً .

وربما هذا جعل بعضهم يوسّع دائرة التلقي لتشمل جميع افراد المجتمع، كما ذهب الى ذلك الآمدي معلقاً على آيات المخاطب بها النبي (ص) أذ يقول: «لا يعمّ الأمة ذلك الخطاب عند أصحابنا ، خلافاً لأبي

حنيفة وأحمد بن حنبل وأصحابهما في قولهم إنه يكون خطاباً للأمة ، إلا ما دلّ الدليل فيه على الفرق .ودليلنا في ذلك أن الخطاب الوارد نحو الواحد ، موضوع في أصل اللغة لذلك الواحد ، فلا يكون متناولا لغيره بوضعه . ولهذا فإن السيد إذا أمر بعض عبيده بخطاب يخصه لا يكون أمراً للباقين . وكذلك في النهي والاخبار وسائر أنواع الخطاب .»[٩] وهذا التوسع في دلالة الصفات الخاصة بالنبي، يُراد منها نزع بؤرة التوتر الدلالي الذي يُخرج المعنى عن عصمته (ص) في التبليغ، المتفق عليها عند جميع المذاهب الاسلامية. فهو في هذا الشأن لا يمكن أن يكون مقصراً لوحده فعُمم الخطاب المباشر له الى غيره من المسلمين. وهذ واضح في عملية الارتباك في فهم دلالة مفردتي المزمل والمدثر، عندها ستكون دلالة المفردتين عامة وليست خاصة.

٢- المنادى في السورتين:

خوطب الرسول الاكرم (ص) في السورتين بوساطة صفتين خاصتين، اتصف بهما حال كونه متلبساً بهما في حادثتين منفصلتين على ما يبدو، أو مجموعة حوادث لفّقها القائمون على فهم النص في زمن النزول، أو ما بعد زمن النزول . وذلك عندما سُمح للمدونة التاريخية والحديثية ان تنطلق ، فتكونت تصورات دلالية جديدة عند المدوّن ، والمتلقي الجديد للتدوين عند مواجهة النص القرآني . وصيغة الخطاب واحدة كما هو واضح . واقتربت دلالة المفردتين من الترادف في المعنى اللغوي عند أكثر المشتغلين في اللغة والتفسير ، فقد قيل في بنائهما الصرفي : إن (المزمل والمدثر) اسما فاعل من الفعل الرباعي المضعف (تزمّل وتدثّر) ، فصارا (المتزمّل) و(المتدثّر) وهو ما جعل بعضهم يقرأ بهما[١٠].

واللافت هذا التشابه في طريقة الاشتقاق والتركيب و التقارب الدلالي بينهما ، فقد يتحدان في الدلالة عند بعض المفسرين الى درجة التطابق، ولاسيما في المعنى المتداول الذي يحكم على المفردتين بدلالة واحدة ، وهي أن معناهما : (المتغطي والمتلفف) ، « فيقال: تزمّل وتدثّر بثوبه أذا تغطى، وزمّل غيره أي: غطّاه، وكلّ شيء لفف قد تزمّل وتدثّر «[١١] . وفي هذا المعنى نجد التطابق بين الصفتين واضحاً جدا،

فكلاهما يشترك في دلالة واحدة ؛ وهي أن الموصوف قد لفَّ نفسه بغطاء ، ونُودي وهو في حال تلبّسه بهذا الوضع ، فوُصف بهاتين الصفتين . وهذا المعنى خلقته الرواية التي تشير إلى أنه صلى الله عليه واله وسلم في بداية ما أُوحي إليه سمع قول الملك ، ونظر إليه أخذته الرعدة ، فأتى أهله وهو يقول: زمّلوني دثّروني[١٢]. وهي واضحة تماماً في بيان المعنى المذكور المنسجم مع كيفية الغطاء ، ولكن السياق الذي سوف نوضحه في المباحث اللاحقة لا يتفق مع هذه المعاني ، حتى وإن صحت دلالته المعجمية ، فهي لا تنسجم ومقام شخص النبي (ص)، وتكليفه المراد منه أن يؤديه للامة.

وهذه الطريقة المعجمية في كشف المعنى لم تكن مقبولة عند كثير من المفسرين كما سنرى ، وكذلك سبب النزول الذي ذُكر لوجود روايات تتعارض معه في هذا المقام ، وهذه الروايات تنظر للمعنى من زاوية أخرى لها علاقة بالمسؤولية التي يُهيأ لها الرسول (ص)وهي تبليغ الرسالة الذي ينسجم مع سياق النداء المذكور في السورتين؛ لذا فالباحث يرى أن التكامل الدلالي يتضح في ذكر هذه المعاني التي تتقاطع مع ما ذُكر من المعاني المعجمية، ولعل أقربها الى مقام النبوة وأكثرها التصاقاً ما قيل :» تزمل للاستعداد للصلاة ، فنودي (يا أيها المزمل . قم الليل الا قليلا) ... ومحملها على أن التزمّل حقيقة (أو) معناه زُملت هذا الامر ، فقم به، يريد النبوة ؛ فيكون قوله : (الليل الا قليلا) مع قوله : (إن لك في النهار سبحا طويلا) تحريضا على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الازمان، من ليل ونهار ألا قليلا من الليل ، وهو ما يضطر اليه من الهجوع فيه، وحمل التزمل عنده على المجاز «[١٣] وهذا الرأي لا يمكن تغافله، لاسيما أنه يحاول توجيه الدلالة في مستوى الحقيقة ومستوى المجاز، وما قيل هنا يمكن أن يقال في دلالة المدثر أيضاً.

كما أن هناك رأياً جديراً بالاهتمام في نص مواز آخر، يرى أن المعنى: يا أيها الذي زُمّل أمراً عظيماً أي حُمّله ،وهذا يبدو أنه يعتمد على قراءة عكرمة، إذ قرأ (المزمل) و (المدثر) بتخفيف الزاي والدال وتشديد الميم والثاء ، على أنه اسم فاعل أو

مفعـول ، فـإن كان عـلى اسـم الفاعـل كان المفعـول محذوفـاً ، والتقديـر: يـا أيهـا المزمـل نفسـه والمدثـر نفسـه، وإن كان عـلى أنـه اسـم المفعـول؛ كان ذلـك لأنـه زمـل نفسـه، أو زملـه غـيره.(١٤) وهنـا يجـب الالتفـات الى أن المعـاني التـي ذُكـرت سـابقاً تُشـكك في قـدرة الرسـول(ص) عـلى تحمـل مسـؤولية الرسـالة ، في حـين مـا ذكـر مـن المعـاني الأُخـر أكثـر جدّيـة في التعامـل مـع مقـام النبـوة ، التـي يريـد لهـا الله تعـالى أن تتلقـى قـولاً ثقيـلاً ، كـما سـيأتي قريبـاً في البحـث. وتوجيـه النـداء الى هاتـين الصفتـين كان أكثـر إيقاعـاً عـلى النفـس مـن صفتـي النبـوة والرسـالة اللتـين أهملهـما النـداء؛ لأنهـما لم يتحققـا بعـد.

٣ - جواب النداء

ويواجهنـا لافـت آخـر في اسـلوب النـداء المعتمـد في السـورتين المباركتـين، فـكلا الجوابـين يبتـدأ في فعـل الأمـر (قـم) الـذي تتحقـق فيـه الآمريـة المطلقـة، التـي تُحتّـم عـلى المأمـور القيـام بهـا؛ لأن الجهـة الأمـرة هـي الأعـلى، فهـي القـوة المطلقـة في الوجـود والتـي لا تأمـر عبثـاً، ولكـن القيامـين بينهـما تقابـل وتكامـل ملحـوظ وبدرجـات معينـة.

أمـا القيام الأول فيتعلـق بقضيتين: الأولى قيـام الليـل، وبيـان مقاديـر الزمـن الذي يكـون ظرفـاً لهـذا القيـام، ليمهّـد الى أمر جديـد لـه علاقـة بملابسـات القيـام، ويحمـل مقـدارا مـن الشـحنات التـي تسـتبطن وجوبـاً آخـر مـن مختصـات المخاطـب، وهـو الفعـل (رتّـلْ) الـذي تـزداد طاقتـه الاسـلوبية بوسـاطة الـتأكيد بمصـدره (ترتيـلا)، ومـا يفرضـه التدبـر في النـص، والاهتـمام بركائـز البنـاء التركيبـي والسـياقي ، يتبـيّن أن كلا الأمريـن (قـمْ ،ورتـلْ) ومـا يلازمهـما مـن قـوة الانضبـاط، والتنظيـم في تقويـة العلاقـة بـين العبـد المطيـع وخالقـه، وذلـك للتمهيـد الى عمليـة تلقـي كـبرى سـتحصل بعـد هـذا الشـحذ البـدني والروحـي لمعرفـة الوظيفـة الرسـالية والتبليغيـة، ألا وهـو تلقـي شيء اسـماه النـص: (قـولاً ثقيـلاً) في قولـه: ((إِنَّـا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيـلًا))(١٥)، ومـع غـض النظـر عـن معنـى الثقيـل الـذي أُختلـف فيـه ، إذ «قـال الحسـن وقتـادة: إنـه يثقـل العمـل بـه بالمشـقة، ويقـال معنـاه قـولاً عظيـم الشـأن ، ويقـال هـذا كلام رصـين ،وهـذا قـول لـه وزن إذا كان واقعـا موقعـه، وقـال ابـن زيـد معنـاه العمـل

بـه ثقيـل في الميـزان ،ويقـال ثقيـل في القلـوب، ومنـه قولـه (ص) (إني تـارك فيكـم الثقلـين)»[١٦] . ولكنـه في النهايـة هـو وصـف للمعـاني التـي يحملهـا هـذ القـول الـذي سـيتلاقاه المنـادى في هـذا النـداء.

القيـام الثـاني: وظاهـره يخـصّ عمليـة الإنـذار، الـذي يمثّـل جـزء مهـماً مـن عمليـة التبليـغ المـراد لهـا أن تتـم، وأقـترن الفعـل (إنـذر) بالفـاء العاطفـة ؛ لتسـتبطن المباشرة بالفعـل بعـد عمليـة القيـام المأمـور بـه، وقـد فرقـوا بـين الانـذار والتبشـير، ولأن الرسـالة في بدايتهـا؛ فـكان أكثـر المعنيـين بعمليـة الانـذار هـم مـن الكفـار، فإنذارهـم هـو المطلـوب ، ولعـل أقـرب المعـاني التـي تتـلاءم مـع سـياق الحـال» أن المـراد فاشـتغل بفعـل الإنـذار ، كأنـه تعـالى يقـول لـه تهيـأ لهـذه الحرفـة ، فإنـه فـرق بـين أن يقـال: تعلـم صنعـة المناظـرة ، وبـين أن يقـال : ناظـر زيـداً .»[١٧]، ودلالـة الأمـر هنـا توحـي بوجـوب عمليـة الانـذار المكلـف بهـا المتلقـي للخطـاب ، فهـو منـذر بالدرجـة الأولى ، وقـد تكـرر هـذا الخطـاب في النـص القـرآني في قولـه تعـالى : ((وَأَنْـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الْأَقْرَبِـينَ))[١٨].

والـذي يهمنـا هـو بيـان العلاقـة بـين القيامـين ، هـل أنهـما متقابـلان تقابـل اختـلاف ، أو تقابـل تكامـل؟ . فلـو أكملنـا سلسـلة الأوامـر التاليـة لتبيّنـت هـذه العلاقـة بوضـوح، إذ إن القيـام الاول يهتـم بعمليـة الإعـداد النفسـي المرتبـط بالصـلاة، وترتيـل القـران في أوقـات معينـة، ثـم بعـد ذلـك تلقـي القـول الثقيـل. وفي القيـام الثـاني تكـون المباشرة بتطبيـق حيثيـات التبليـغ الـذي منـه الإنـذار، الـذي ارتبـط ايضـا بالأوامـر التـي تلتـه، وهـو مـا سـنفصله لاحقـاً .

المبحث الثاني: التكامل الصوتي:

إن الوقـوف عـلى اسـلوبية التكامـل الصـوتي بـين السـورتين يسـتدعي أن يكـون بيانـه في مسـتويين أثنـين :

١-التكثيف الصوتي:

وهـو هنـا يخـصّ صوتـين تميـزت بهـما كلّ سـورة عـلى انفـراد، صـوت (اللام) في سـورة المزمـل، وصـوت (الـراء) في سـورة المدثـر، وهـذا واضـح في المفـردة الاولى التـي تمثـل مفتاحـاً في كل سـورة، فلـو امعنـا النظـر في صفـات هذيـن الصوتـين؛ لوجدنـا بينهـما تطابقـاً حـاداً في صفاتهـما ، إلا مـا يميّـز كونهـما حرفـين

مختلفين، فهما يقعان في مجموعة صوتية متناظرة، قال عنها الدكتور كمال بشر « الراء واللام والميم والنون، تشبه الحركات في أهم خصيصة من خواصها ، وهو قوة الوضوح السمعي»[١٩]، وهذه المجموعة تشكل أعلى نسبة في العربية ؛ إذ أنها أكثر الأصوات شيوعاً، لما تتمتع به من قدرة الانطلاق في الكلام من دون تعثّر وتلعثم.[٢٠] وهذا التناظر في مجموعة الصفات يمهّد الى التكامل الاستعمالي الصوتي ، والتناظر بينهما يبدأ من وحدة المخرج، فكلاهما يكون اللسان عضوا مهماً في تكوينه، فاللام تخرج من أدنى حافتي اللسان الى منتهاهما، والراء من طرف اللسان.

أما من جهة الصفات، فالتطابق بينهما تام ، فكلاهما متوسط ،منحرف، مجهور، مستفل، منفتح، ولا يختلفان إلا في التكرار الذي اختص به صوت الراء دون اللام.[٢١] وواضح اشتراكهما في قابليتهما على الترقيق والتفخيم.

فوجود اللام بهذا التكثيف المقصود ابتداء من الصفة التي نُودي بها الرسول (ص) (المزمل)، مرورا بكل الآيات الأخر في السورة ، فقد تبين إحصائياً أن حرف اللام تكرر (١٥) مرة ، وتكرر حرف الراء (٣٨) مرة، فيبدو أن هذا التكرار كان له مبرراته الصوتية والدلالية، فصوت اللام يتناسب مع هذا الوفود النغمي الذي يتناسب مع توطين النفس، وتهذيبها ،الذي يجعلها مستعدة لقبول الرسالة . أما صوت الراء وما يحمله من صفة تميّزهُ عن صوت اللام، وهي صفة التكرار ،اضافة الى المشترك بينهما من التفخيم والترقيق يتناسب مع عملية الإنذار التي كُلّف بها المأمور ، وبيان عملية التردد الذي يواجه هذه العملية الكبرى في تغيير العقائد المتجذرة في نفوس المُنذرين. فعملية التكرار فيها تكثيف في العرض وما يناسبه من شدّة ورقّة في هذا الانذار . ومن هنا فإن هذين الصوتين شكلا منظومة صوتية متكاملة في ترسيخ الدلالة المرجوّة من تكثيفهما، والتكامل الذي يربّي النفس، والذي يجعلها في أعلى درجات التلقي الذي يحتاج الى كمية من الصبر والتحمل في مواجهة المسؤولية الثقيلة التي تنتظر المتلقي.

٢- التكثيف الإيقاعي

يُشكل الإيقاع ظاهرة صوتية متميزة ، أخذت مساحات واسعة في العرف اللغوي ، وعُرّف بتعريفات عدة ، يمكننا أن نختار منها ما يناسب المقام ، فمثلا هناك من عدّ الإيقاع « صيغة معينة من النظم يصوغها صانع الإيقاع، بعملية اساسها هيكلة وهندسةٌ؛ تتألف وفقها عناصره المادية، في هيئة متماسكة تتعلق أجزاؤها بعضها ببعض، وبعضها بالكل »[٢٢] ، ولا شكّ أن هذا النوع من الإيقاع يخلق حالة نفسية لدى المتلقي ؛ تجعله منسجماً مع النظم الإيقاعي ؛ إذن الإيقاع هو : « انسجام الصورة مع الصوت الذي يُحدث في النفس اهتزازاً وشعوراً بالمتعة، هذا الانسجام تحدثه العلاقة المتعدية بين الصوت والصورة ، فالجذب من قبل النظر للصورة يقابله الوقع في السمع من قبل الكلمة ، ونقطة التقاطع بينهما هي إحداث الأثر النفسي والإحساس بحركة الجمال التي يحدثها الإيقاع ، فتحدث المتعة التي تمزج بين الصورة السمع ويصيرا كلً واحداً»[٢٣] ، وهذا يعني إن الإيقاع يحصل مقصوداً من لدن المبدع؛ لإحداث هذ الحركة النفسية عند المتلقي . فهو يمثل حركة خارجية يثيرها النص بتركيبة صوتية مميزة « فالإيقاع متصل بالحركة، وغير منفصل عنها ، ولا ينفصل إلا أذا كانت عشوائية ، وغير فنية ، ومن ثمّ فهي من لوازمه ، والنسبية تهدف الى تحقيق العلاقة بين شيئين متناسبين في الحركة والزمان والاداء ، والتناسب يعمل على التوافق بينهما ، والنظام يعن الترتيب والتناسق، والمعاودة الدورية ضرورية لكي يتحقق الإيقاع ؛ إذ لا إيقاع بلا تكرار ومعاودة» [٢٤].

وهذا النوع من الإيقاع تملكه اللغة العربية ، وتكتنز طاقات فنية في تشكيل بنية إيقاعية منظّمة وهادفة ، فهي لغة إيقاعية بامتياز ، وهذا الإمتياز ارتبط بالنص الأول للغة ، وهو النص القرآني، فاكتسب هذا النص من اللغة طواعيتها على الإيقاع « مما جعل النص القرآني يكتسب خصوصية دون سائر النصوص الأدبية الاخرى ، فأصبح طيّعاً للترتيل »[٢٥] ، فصار نصاً « متلواً لا يملّ على طول التلاوة ، ومسموعاً لا تمجّه الآذان، وغضاً لا يخلق من كثرة الترداد»[٢٦].

والـذي يتأمـل جليـاً في الإيقـاع القـرآني يمكـن أن يضعـه في مسـتويين :

الأول: الخارجـي، الـذي يعتمـد الجانب الصـوتي المتولـد مـن تناسـق الحـروف ومخارجهـا، وصفاتهـا، وحركاتهـا، ومـن أوزان الكلـمات ، والفواصـل القرآنيـة ، وضروب البديـع ، والتـوازن بـين الجمـل والعبـارات .

الثـاني: الداخـلي ، والـذي يمكـن وصفـه بأنـه حركـة منتظمـة في بنـاء السـورة كلهـا، وهـو مـا يميّزهـا عـن غيرهـا مـن السـور، وهـذ الحركـة إنـما تـدرك مـن خـلا فهـم متكامـل لنمـو الحركـة الإيقاعيـة داخـل البنـاء الـكلي للسـورة الواحـدة .

وقـد تميـزت السـورتان بإيقـاع واضـح اشـتركت فيـه عوامـل صوتيـة عـدة، أهمهـا الفواصـل الواضحـة في بنيـة السـورتين أفـإن الفاصلـة في القـران الكريـم ركـن اسـاس في تكويـن بنيتـة الإيقاعيـة ، فهـي في ذلـك تشـابه البنيـة الايقاعيـة التـي تخلقهـا القافيـة في الشـعر ، والسـجع في النثر ، فالفاصلـة لهـا الـدور الإيقاعـي في الآيـات ولكنهـا تتميـز بـأن وظيفتهـا ليسـت صوتيـة ولفظيـة فحسـب ؛ بـل لهـا دور كبـير في إبـراز المعنـى.[٢٧]

وهـو مـا يظهـر جليـاً في ايقـاع السـورتين، ففـي سـورة المزمـل نجـد أن إيقاعهـا متسـاوٍ ويمتلـك رويّـاً واحـداً ، وذلـك في صـوت الـلام ، اذ يصف سـيد قطـب هـذا الايقـاع في سـورة المزمّـل قائـلاً: « الـلام الممـدودة المطلقـة، وهـي إيقـاع رخـي وقـور جليـل يتمشـى مـع جـلال التكليـف ، وجديـة الأمـر ، ومـع الأهـوال المتابعـة التـي يعرضهـا السـياق «[٢٨] ، عـلى هـذا فالإيقـاع الـذي رافـق سـورة المزمـل يتناسـب مـع الاوامـر الموجهـة للمتلقـي ، فهـي أوامـر تتجـه نحـو بنـاء الـذات وتهذيـب النفـس ، وتصـف بعدهـا حـال الذيـن لا ينسـجمون مـع خـط الرسـالة ؛ فجـاء إيقاعـاً فيـه مـن الاسـتطالة المقصـودة ، والامتـداد النغمـي في مقاطـع تـكاد تسـلب اللـب، وتشـنف الآذان (قُـمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيـلًا . نِصْفَـهُ أَوِ انْقُـصْ مِنْـهُ قَلِيـلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْـهِ وَرَتِّـلِ الْقُـرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّـا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلًا ثَقِيـلًا ...)[٢٩] . وهـذا الايقـاع شـكل بنيـة ايقاعيـة مميـزة؛ تجسـد فيهـا المسـتوى الاول في رسـم صـورة بيانيـة وبديهيـة في ظهـور صـوتي واضـح، مـن المـد والتنويـن الـذي يلحـق هـذا المـد، الـذي اعطـى ايقاعـا داخليـاً مميـزاً ، يجـذب المتلقـي

للبحث عن البنية الصوتية العميقة في المستوى الثاني.

أما في الآيات المتأخرة من السورة انتقلت الى بيان الأهوال التي تلحق بمن يتخلف عن عملية التلقي الكبرى – تلقي القول الثقيل – فنلاحظ هذا النغم الايقاعي في عرض التهديد الذي سيصيب المكذبين(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا . إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا .وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا .)[٣٠]. والسورة بإيقاعها المتميز تبين مدى علاقة هذا الايقاع بالصورة التي تريد ان ترسمها، وبالمعاني التي تجسدها للمتلقي ،وهو يستقبل هذا النص الساحر في بداية الدعوة الاسلامية.

واذا انتقلنا الى السورة الاخرى سورة المدثر؛ نجد أن الايقاع هنا مختلف، فنلمس ايقاعاً قصيراً سريعاً؛ ينسجم مع موضوعه الذي يتمحور مع عملية الانذار التي تحتاج الى سرعة في التبليغ ، فهو تبليغ منجّز، بخلاف عملية تهذيب النفس التي تستمر وتستطيل ، فعملية الانذار تحتاج الى حبكة متسارعة متناغمة مع قوة المطلوب ؛ لذا جاءت العبارات قصيرة متقابلة في الوزن والروي القرآني المميز(قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)[٣١]، إيقاع سريع وقصير ، شكل بنية صوتية خارجية عن طريق التكرار اللافت لحرف الراء الذي ينسجم مع الحبكة الايقاعية التي تحتاج الى تكرار في عملية الانذار، ولكنه تكرار متسارع. وهذا الكلام السابق كان يخص الجوانب الصوتية في المقدمات الايقاعية في السورتين، ولكن إذا انتقلنا الى الآيات المتأخرة نجد أن البنية الإيقاعية في سورة المزمل ؛ تتطاول بسبب الصورة التي يراد رسمها من المبدع، وهي ترسم الهول العظيم والتهديد المروّع، الذي يصيب المتخلفين عن قبول الدعوة، الذين طُلب من الرسول بقوله(ذر) ؛ فيتوعدهم النص بهذه الوعود التي رسمها إيقاع طويل نسبياً : (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا

. إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا . فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا .السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) (٣٢).

أما سورة المدثر فلا تتنازل عن إيقاعها السريع حتى مع الوصف الخاص بالموضوع نفسه ، وهو موضوع يوم القيامة ، كما في قوله : (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) (٣٣)، إيقاع سريع وقصير بروي يتوحد مع النص السابق ؛ ولكنه لما ارد أن يبين التفاصيل الدقيقة والخلاصة الموضوعية لكل الاحداث السابقة، ينتقل النص الى إيقاع آخر يتساوق مع إيقاع سورة المزمل، الذي اصبح ايقاعاً متباطئاً و طويلاً جداً، كما في الآية : (وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) (٣٤)، وهو ما حدث تماماً في تبدل الايقاع في نهاية سورة المزمل (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(٣٥). وهنا يتضح مدى شدة التكامل الإيقاعي بين السورتين ، وبيان مدى اشتراكهما في تكامل صوتي نصي متكامل.

المبحث الثالث :التكامل الدلالي

اولاً : في المستوى التأويلي

لا يمكن بحال من الاحوال لأي باحث في النص القرآني ان يتجاوز عتبة التأويل في القراءات الأسلوبية ؛ وذلك لوجود سلطة تأويلية فرضها الواقع التفسيري ، من جهة، ولقدرة اللغة التي تحتضن هذا النص في اكتناز سياقات كثيرة قابلة للتأويل من جهة ثانية؛ لأن « الطاقة التأويلية القائمة على المادة النصية تبحث عن المشكلات العالقة عبر انفتاح القراءة على مداخل أخرى سياقية تدخل في الموازيات النصية والمواضعات اللغوية »[٣٦] ، كما أن هذه اللغة لها سياقات تفرض نفسها على الأسلوب الذي تعرض فيه المادة النصية، والصور الاسلوبية امام القارئ المتجرد عن المؤثرات المسبقة، والمعاني التأويلية ضرورية جدا لبيان التكامل الاسلوبي في تجاوز المعاني الظاهرة الى المعاني الباطنة في المفردات والتراكيب التي استعملها النص ، اعتمادا على ثراء المفردة، وقوة التركيب، والموازي من النصوص القرآنية والحديثية التي تنفع في بيان المعاني التي تنتجها حركة التأويل.

فمفردتا المزمل والمدثر اذا ما حُملتا على ظاهرهما؛ تعطيان دلالات ذكرت في التكامل البنائي ، ولكن ترشحت في بعض القراءات التفسيرية بعض المعاني المجازية التي تدخل في إطار عملية التأويل، وهي عملية تحتّمها طبيعة النص وطبيعة المخاطَب ، فاذا تجاوزنا المعنى اللغوي لهاتين المفردتين وهو (التلفف) ؛ تبرز لدينا معانٍ اكثر ملائمة لشخصية الموصوف بهما، الذي يُعدُّ خاتم الانبياء وسيدهم، فقد نُقل عن الحكماء قولهم :» إنما خاطبه بالمزمل والمدثر في اول الامر ؛ لأنه لم يكن بعد ادثر شيئاً من تبليغ الرسالة»[٣٧] ؛ لذا يرى الباحث انه لا يمكن بحال ان يكون معنى المزمل والمدثر متطابقا في دلالتهما على نوع واحد من التلفلف، وإنما السياق يجبرنا على بيان معناهما السياقي الذي يوحي بأن لعملية التزمّل علاقة بالهيئة التي يقوم معها النبي (ص)الى الصلاة، فيتزمّل في ثوبه اي يلف بدنه بثوبه وهو مقبل على الصلاة ، وقد كان النبي (ص)، يقوم الليل كلَّه متزملاً بثيابه، فأراد المولى ﷻ أن يخفف عنه من هذا القيام المستمر وما يرافقه من الم الوقوف

للصلاة ، فجاء الامر بالقيام نصفا من الليل، او زيادة بسيطة وهو تخفيف مهم، أما المدثر فهو إشارة الى اشياء قد دُثرت، وتحتاج الى ان تنشر بالدعوة الى التوحيد، فجاءت منسجمة مع الامر بالقيام للإنذار، الذي يتساوق دلالياً مع التطهير والتكبير وهجران الرجز وعدم المنة في الآيات اللاحقة (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)[٣٨] . ويتبين التكامل بين الصفتين في المعنى «لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذٍ محتاجة إلى الإنذار والتحذير»[٣٩].

وفي ضوء ما تقدم فنحن بحاجة الى معرفة نوع القيامين المأمور بهما من لدن المبدع الى اثارة المتلقي الاول ، وإشعاره بضرورة رسم خارطة طريق للرسالة وتبليغ القرآن الذي وصف بانه قول ثقيل، والباحث يذهب تماماً مع ما قاله احد المفسرين اذا يقول: «والقيام المأمور به ليس مستعملاً في حقيقته ؛ لأن النبي لم يكن حين أوحي إليه بهذا نائماً ، ولا مضطجعاً، ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه، وإنما هو مستعمل في الأمر بالمبادرة والإقبال والتهمُّم بالإنذار مجازاً أو كناية»[٤٠]. وهذا مطابق للتأويل النحوي الذي ذهب الى أن الفعل (قام) من أفعال الشروع ، إذ نقل الألوسي عن ابن حيان ذلك بقوله : « قم قيام عزم وتصميم وجعله أبو حيان على هذا المعنى من أفعال الشروع كقولهم قام زيد يفعل»[٤١] ، اذا كان المقصود به ليس القيام نفسه وإنما لازم القيام، وكذلك الأمر لم يلتزم بزمن الفعل ؛ بل فيه معنى الاستمرار؛ لأن «المَعروفُ في أفعال الشّروعِ هو الدّلالة على الشّروعِ فيه مع قطْعِ النّظَر عن الاستِمرار والمُواصَلة أم لا ، ولذلِك مَنَعوا خبَرَها من دخولِ أنْ عليه ، لما فِيها من مَعْنى الاستِقْبال»[٤٢] ، فالقيام الموجه له صلى الله عليه وآله ليس القيام الحقيقي المباشر ، وإنما هو قيام العزيمة وقيام البدء في نشر الدعوة و الشروع في الإنذار .

وبهذا يظهر لنا أهميَّة هذه الاوامر المتوالية للرسول الكريم، الذي انتدبه

ربه لأن يكون نذيرًا للبشر؛ فإن أول ما يجب عليه هو ما يجب الانذار به وهو معرفة الله تعالى، ثم تنزيهه عما لا يليق بجلاله وكماله، وإثبات ما يليق به جل وعلا.

وفي قوله: (وربك فكبر) ،يرى الباحث، أن الامر بالتكبير يمثل حلقة الوصل بين الانذار الذي قُن معه في السياق، وبين الصلاة التي يُعد التكبير جزءا منها ، وركناً من أركانها، إبتداءً من تكبيرة الإحرام مرورا بتكبيرات القيام والركوع والسجود والتكبير المستحب في اخر الصلاة ، فالتكبير يمثل عملية إجرائية من عمليات الإنذار؛ لذا قال ابن عاشور: « كبره في اعتقادك ، وكبره بقولك تسبيحات وتعليماً »[٤٣] ، فالمعنى أن يقول: (الله أكبر) لأنه إذا قال هذه الكلمة أفاد وصف الله بأنه أكبر من كل كبير، أي أجلّ وأنزه من كل جليل، ولذلك جعلت هذه الكلمة افتتاحاً للصلاة. وأحسب أن في ذكر التكبير إيماء إلى شرع الصلاة التي أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله: (وثيابك فطهر) [٤٤] ، فإنه إيماء إلى شرع الطهارة، فلعل ذلك إعداد لشرع الصلاة. فتدخل عملية الإنذار في إطار السياق الذي يشمل قيام الليل والتطهير والتكبير .

ومن غريب التأويل الذي قيل في الفاء، في قوله تعالى:﴿ فكبِّر ﴾، وفيما بعده من الافعال ، فقد ذهب بعضهم الى أنها لإفادة معنى الشرط؛ وكأنه قال: ومهما يكن من أمر، فكبر ربك، وطهِّر ثيابك، واهجر الرجز، واصبر لربك. فالفاء على هذا جزائية. ويسميها بعضهم: الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر. وذهب أخرون الى أن هذه الفاء دخلت في كلامهم على توهم شرط، فلما لم تكن في جواب شرط محقق، كانت في الحقيقة زائدة، فلم يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها لذلك.[٤٥]

والحقيقة أن هذا تجنٍّ منهم على هذه الفاء؛ لأنهم حين وجدوها متوسطة بين ما العامل، ومعموله المقدم عليه- والمعروف عند جمهور النحاة أن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها- لجأوا في تأويل الآية الكريمة إلى هذا التأويل، الذي لا يتناسب مع بلاغة القرآن، وأسلوبه المعجز في التعبير. فأين قول الله جل وعلا:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾من قولهم في تأويله: مهما

يكن من شيء، فكبر ربك ؟ لما فيه من إخلال بنظم الكلام ومعناه. أما إخلاله بالنظم فظاهر. وأما إخلاله بالمعنى فإن الغرض من تقديم قوله تعالى:﴿ وَرَبَّكَ ﴾هو التخصيص، وربطه بما بعده، وهو قوله تعالى:﴿ كَبِّرْ ﴾. ولجعل هذا الأمر واجبَ الحدوث دون تأخير، جيء بهذه الفاء الرابطة، فقال سبحانه:﴿ وَرَبَّكَ فكَبِّرْ ﴾ هذا المعنى لا نجده في قولهم: مهما يكن من شيء، فكبر ربك؛ لأن الشرط مَبناه على الإبهام. والمبهم يحتمل الحدوث، وعدم الحدوث. فإذا قلت: إن جاءك زيد فأعطه درهمًا، فإن الأمر بإعطاء الدرهم- وإن كان مستحقًا بدخول الفاء- فإنه مرتبط بمجيء زيد، ومجيء زيد ممكن الحدوث، وغير ممكن. (٤٦)

ثانياً: التكامل في دلالة الأمر

في كلتا السورتين شحنات من الاوامر الموجهة الى مخاطب مفرد مقصود ، ففي سورة المزمل الافعال(قم، أنقص، زِد ،رتل، اذكر، تبتل ، اصبر، أهجر، ذَر،) اما في سورة المدثر (قم، أنذر ، كبر، طهر، اصبر، ذَر ،) فَلَو أجرينا عملية تقابل رياضي بين مجموعتي هذه الافعال واخرجنا مجموعة التقاطع بينهما نجد إنهما يشتركان في مجموعة الافعال(قم، اصبر، ذَر) . وهذه الاوامر الثلاثة يمكن ان تعد العمود الفقري في هيكلية للسورتين ، فالقيام المامور به متشابه الى حد كبير ولاسيما في وحدة التلقي ، وايضا في تقارب الاسناد ،(قم الليل) تعني شحن النفس بمعايير وطاقات تؤدي الى تكامل شخصية المخاطَب ليتحمل تبعات الرسالة، وهو ما يترتب عليه القيام الثاني (قم فأنذر) ، فبناء الشخص الذي يقوم بعملية الانذار- وهي من اثقل ما يحمل به الانسان- وتهيئته نفسيا مهمة جداً ، لأنها عملية معقدة تحتاج الى مقومات كثيرة ،أهمها مقبولية المبلغ عند متلقي الرسالة الذي توجه اليه عملية الانذار.

اما مجموعة الاوامر التي يمكن ان تصنف في خانة تكامل التقابل؛ فإن هذه الافعال تشترك في بعد واحد، وهو البعد العبادي المتصل بين الذكر والترتيل والتبتل والتكبير والتطهير، ولو اجرنا عملية حفر في العلاقة بين المجموعة المشتركة بين السورتين وأفعال العبادة نجد

بينهما تلاقحا وامتدادا مكملاً للآخر ؛ فهناك علاقة واضحة بين عملية قيام الليل، وترتيل القرآن، وطهارة الثياب ، والتكبير لله تعالى . فهذه كلها تصب في حوض تنقية النفس وتربيتها وشحذها ؛ لتحمل اعباء المهمة الموكلةَ الى المخاطَب ، فهو يجب أن يمتلك جنبة الحضور بشخصية مثالية ترتقي الى مستوى(وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [٤٧] ليتواصل تداولها بعد ذلك وتنعكس على حياة المقصودين بعملية التبليغ : المؤمن منهم والكافر، فسورة المزمل عملت على تهيئة القلوب المؤمنة لتسير على وفق المنهج المرسوم للقائد واتباعه. لأن قيام الليل له اثارٌ عظيمة مرجوة تظهر اثارها على القائم، تبينها الآية : (وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) [٤٨] ، فقيام الليل لأنه نافلة يرجى منه الوصول الى المقام المحمود الموعود لشخص الرسول الاكرم .

وهذه الاوامر السابقة كلها، تعني بناء الذات عند المخاطَب المباشر ، وكذلك تعني بصورة غير مباشرة، المخاطَب الذي يمكنه ان ينسجم مع الخط الرسالي، أما الاخر الذي لا يصدق بهذا الثقل الملقى، فهو له علاج اخر يجسده الاخر المشترك بين السورتين، والذي ذكره بعض المفسرين بما يخص القيام الاول في سورة المزمل، والذي يرى ان المزمل بأمر النبوة، يكون هناك تكامل واضح بين القيام الاول والقيام الثاني، ولكنهما عُرضا بأسلوبين مختلفين، فَلَو كان معنى القيام بقوله: (قم الليل الا قليلا) :»تحريضاً على استفراغ جهده في القيام بأمر التبليغ في جميع الأزمان من ليل ونهار إلاّ قليلاً من الليل، وهو ما يضطر إليه من الهجوع فيه. ومحمل التزمل عنده على المجاز» [٤٩] ؛ لصار هذا المعنى متطابقاً مع القيام المأمور به في سورة المدثر، الذي يكون جوابه بفعل امر اخر وهو (فأنذرْ).

أما في قوله: (ذرني) ، فالأول يخص مجموعة من المعارضين وهم المكذبون (ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) (المزمل ١١) ، والثاني يوسع الدائرة لتشمل المخلوقين من العاقل بدلالة (من) الموصولة (ذرني ومن خلقت وحيدا) [٥٠] ، ولعله ليس من باب المصادفة أن تكون الآيتان بالتسلسل الترقيمي نفسه في

السورتين، وهو إنهما يحملان الرقم (١١) . ولكن الأولى توحي بترك القريبين من احداث التلقي ، اي الحاضرين في وقت التبليغ، والثانية تتسع لتشمل جميع من يعترض في جميع مراحل الاستمرار في اداء التبليغ ، وفيه إشارة الى عالمية الرسالة وعدم اقتصارها على بيئتها القريبة، او مكانها وزمانها الخاصين بسياق النزول. وهنا إشارة واضحة في الرد على من يقول بتاريخية النص القرآني وتحجيمه في مدة زمنية قاصرة.

وكذلك الأمر بالصبر في المزمل(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا)[٥١] ، اما في سورة المدثر فقوله: (ولربك فاصبر) [٥٢] فالحقيقة ان الامر بالصبر واحد، ولكن في اية المزمل بياناً لسبب الصبر ، وهو الصبر على الاتهامات التي يوجهونها اليه بأقوالهم، وهو الصبر الذي تسببه مراحل القيام الاول ، وما يلازم هذا الصبر من ملازمات الهجر لهؤلاء هجرا بلا تعنيف ، وهو هجر جميل، لأن الهجر العنيف لا يتناسب مع الصبر ، ولا مع عملية الانذار المكلف بها الرسول، وفي سورة المدثر بيان لجهة الصبر، والنية التي يجب ان يعقد من اجلها الصبر، المقترنة بدلالة لام الملاصقة (لربك فاصبر) لكي يتكامل العمل ، ويرتقي الى دلالة تتناسب وعملية الانذار الذي هو الهدف الاول من الرسالة. وهكذا تتكامل مراسيم التبليغ ومراتب القيام الذي يحتاج الى صبر وتوكل وقوة في عملية الانذار.

ثالثاً: دلالة تكامل التلقي:

ان عملية التلقي في النصين متوازية ويمكن ان نرى العلاقة فيها بين السورتين بوضوح، ونقطة الوصل بين السورتين هي في عملية تلقي القرآن ، الذي وصفت بانها (قولاً ثقيلاً) وعملية الانذار الموجهة في سورة المدثر ، فصفة الثقل التي وصف بها القول هي من باب الاستعارة اللافتة، إذ لا يوصف القول بالثقل لأنه يخص الأجسام عادة ،اللهم الا ان يكون ذلك بمعنى المشقة التي يسببها ادراك ذلك القول، كما ذهب اليه بعض المفسرين معللاً سبب الثقل « لتضمنه معنى يشقّ على النفس إدراكه؛ أو لا تطيق فهمه، أو تتحرج من تلقيه، كدقائق الأنظار العلمية إذا ألقيت على الأفهام العامة، أو لتضمنه حقائق يصعب

التحقق بها ، أو تكاليف يشقّ الإتيان بها والمداومة عليها.» [٥٣] ، وقد جاءت عملية التلقي هذه بعد الامر بتخلية النفس بوساطة قيام الليل، فالقرآن بما يحمل من معاني عظيمة فيها تكليفات واضحة للبشر، تأتي متكاملة مع حجم الانذار الذي يكلف به الرسول صلى الله عليه واله في سورة المدثر، اذ يأمره بالإنذار والطهارة وترك الشرك ، فالطهارة المرادة هنا هي الحالة المناسبة لتلقي الوحي(القول الثقيل) الذي ذكرته سورة المزمل، هذا التلقي المتوافق مع حمل القرآن وقيمه؛ كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة» من حيث تلقي معناه فإنه كلام إلهي مأخوذ من ساحة العظمة والكبرياء، لا تتلقاه إلا نفس طاهرة من كل دنس، منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه ، وكتاب عزيز له ظهر وبطن وتنزيل وتأويل تبيانا لكل شيء «[٥٤] ، وهي بعد هذا، وذلك ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات المختلفة، والأهواء المتنازعة، وما يصاحب ذلك ويلابسه من أدران الشرك وشوائبه. وذلك يحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوثين دون أن يتلوث، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس.[٥٥]

من هنا فان عملية التلقي هذه التي أشير اليها في السورتين تأتي مشفوعة بِمَا يناسبها من الصبر الذي أُمِر به المتلقي في السورتين ففي سورة المزمل : (واصبر على ما يقولون)[٥٦] ، فالصبر هنا مطلق على ردود الافعال التي تتوقع من هؤلاء المعترضين؛ لأن عملية التلقي وتبليغ الرسالة، تحتاج الى هذا النوع من التصبر ، وهذا واضح من كمية الصبر المأمور بها في السورتين ؛ لذا فان نوعاً اخر من الصبر ايضا يتطلب في عملية الانذار الموجود في سورة المدثر (وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ). وربط الصبر بالربوبية فيه أبعاد نفسية وتربوية واضحة من جهة التوكل والاستعداد النفسي لمواجهة الثقل الموصوف به العمل الموكل الى الرسول(ص).

الخاتمة والنتائج:

بعد هذه الرحلة الممتعة مع النص القرآني متمثلاً في سورتي المزمل والمدثر يمكننا الوقوف على ثمرات هذا البحث الاسلوبي المقارن في عملية تقابل تكاملي ، وهذ الثمرات تتلخص بما يأتي:

١-لا يوجد اتفاق على اسباب النزول التي تُعد من السياقات الخارجية المهمة في الوصول الى دلالة النص القرآني ، والاستفادة في بيان شخصية الرسول الاكرم ، ومعرفة صفاته التي امتدحها القرآن الكريم ؛ ليكون قدوة وأسوة حسنة لمن يريد ان يقتدي بها في كل الازمنة .

٢- ايضا هناك عدم اتفاق واضح في بيان مكان نزول هاتين السورتين فمنهم من قال بمكيتهما، وآخر قال بمدنيتهما، او التبعيض في بعض الآيات ، وهذا الامر خلق إرباكاً واضحاً في توجيه معاني بعض الآيات .

٣-مصطلح التكامل الأسلوبي يعني أن نقابل بين النصين ونقارن بينهما للوصول الى الدلالات المشتركة بينهما لأنهما يخصان متلق واحد ويشتركان في وصفه .

٤-لا يوجد تطابق بين صفتي التدثّر والتزمّل وان تقاربا في المعنى ؛ بل في كلاهما دلالات تخص السياق الذي وضعتا فيه.

٥-التكامل التركيبي اظهر علاقة صاخبة بين النصين تتجسد في كثافة الأوامر الموجهة للمتلقي.

٦-العلاقات الصوتية بين السورتين كانت واضحة ويمكن أن نقرأ انسجاما صوتياً متكاملاً يوصلنا الى حقائق مهمة في حضور ايقاعي لافت في السورتين ينسجم مع موضوعيهما.

٧-دلالات المفردات تحتاج الى نظرة تأويلية فاحصة عند المتعاملين مع النص القرآني سابقا ولاحقاً، فتفرض بعض الدلالات نفسها تأويلياً وسياقياً، وقد اتضح هذا في كمية الأوامر التي شكلت شحنات كثيفة لبيان عملية التلقي الكبرى ووصفها.

وهناك نتائج لطيفة يمكن التأمل فيها واكتشافها من القارئ الكريم .

والله ولي التوفيق.

الهوامش:

١- ينظر شرح الرضي على الكافية ١ : ٣٤٤

٢- مفاتح الغيب ٢٢: ١٤٣

٣- « فقيل إنها اسم من أسماء اللهّ أو اسم من أسماء القرآن أو اسم من أسماء النبي وقيل إنها من اللغة الحبشية بمعنى يا إنسان أو إنها كذلك في لهجة طي . وإنها في أصلها انيسين ثم صارت ياسين . وقيل إنها من نوع الحروف المنفردة التي جاءت في مطالع السور العديدة الأخرى . «.التفسير الحديث ، محمد عزة دروزة ٣ : ٢٢

٤- المزمل : ١

٥- المدثر : ١

٦- التحرير والتنوير ٢٩: ٢

٧- المفردات في غريب القران: ٢١٥

٨- ينظر : مفردات ألفاظ القرأن : ٢٧

٩- الاحكام للامدي ٢: ٢٦٠

١٠- ينظر زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٨: ١٢١

١١- الجامع لأحكام القران ، القرطبي ١٩ :٣٣

١٢- قيل : كان هذا في ابتداء ما أوحى إليه ، فإنه لما سمع قول الملك ونظر إليه أخذته الرعدة فأتى أهله فقال : (زملوني دثروني) ينظر الجامع لأحكام القران ١٩: ٣٣ وأحكام القران لابن العربي ٤: ٤١٩

١٣- التحرير والتنوير

١٤- ينظر مفاتح الغيب ٣٠: ١٧١

١٥- المزمل : ٥

١٦- متشابه القران ومختلفه ، ابن شهراشوب ٢: ١٢٩

١٧- مفاتح الغيب ٣٠ : ١٩٠

١٨- الشعراء : ٢١٤

١٩- علم اللغة العام ، الأصوات، كمال بشر ، مصر، ١٩٧٣ م : ١٣١

٢٠- ينظر : الدراسات الصوتية واللهجية عند ابن جني ، الدكتور حسام النعيمي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠م : ٣٢٣

٢١- علم اللغة العام ، الأصوات، كمال بشر: ١٣٦

٢٢- الإيقاع في السجع العربي، محمود المسعدي ،نشر عبد الكريم بن عبدالله، تونس، ١٩٩٦م د .ط : ٥ -٦

٢٣- البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر ، عبد الرحمن تيبر ماسين، دار الفجر للنشر والتوزيع ، ط٢، القاهرة ،٢٠٠٣م : ٩٤

٢٤- المصدر نفسه : ١٠٢

٢٥- جماليات الايقاع الصوتي في القران الكريم : ٢٨

٢٦- في ظلال القران ٦: ٣٧٤٠

٢٧- ينظر جماليات الايقاع الصوتي في القران الكريم : ٢٨

٢٨- في ظلال القران ٦: ٣٧٤٣

٢٩- المزمل :٢-٥

٣٠- المزمل: (١٠ -١٤)

٣١- المدثّر:(٢-٦)

٣٢- المزمل:(١٢- ١٩)
٣٣- المدثر: (٢٦- ٣٠)
٣٤- المدثر :٣١
٣٥- المزمل :٢٠
٣٦- التأويلية العربية ،محمد بازي : ١٤٦
٣٧- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩ : ٣٢
٣٨-المدثر: (٢-٥)
٣٩- التحرير وللتنوير٢٩: ٢٩٥
٤٠-المصدر نفسه ٢٩: ٢٩٤
٤١- روح المعاني ٢٩ : ١١٦
٤٢- تاج العروس للزبيدي ١٣: ٣٠٠
٤٣-التحرير والتنوير٢٩ : ٢٩٦
٤٤-(المدثر: ٤)
٤٥- ينظر روح المعاني : ٢٩ : ١١٦
٤٦- ينظر : من اسرار الاعجاز اللغوي والبياني في سورة المدثر، موقع موسوعة الاعجاز العلمي في القران والسنة ، الاستاذة رفاه محمد علي زيتوني ، حلب.
٤٧-القلم : ٤
٤٨-الإسراء : ٧٩
٤٩- لتحرير والتنوير٢٩: ٢٥٧
٥٠-(المدثر:١١)
٥١- (المزمل:١٠)
٥٢- (المدثر : ٨)،
٥٣- الميزان في تفسير القران ٢٠: ٦٣
٥٤- المصدر نفسه
٥٥- ينظر من أسرار الإعجاز اللغوي والبياني في سورة المدثِّر/ موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
٥٦- المزمل : ١٠

حولیه المنتدی